مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA

e-ISSN: 2600-8394 VOL. 8. No. 2 December (1446-2024)

الطّابع الشّخصيّ والجمعي للمسئوليّة في فكر محمد عبد الله دراز: دراسة معرفية في إطار القرآن الحكيم

The Personal and Collective Nature of Responsibility in the Thought of Muhammad Abdullah Draz: An Epistemological Study within the Framework of the Noble Qur'an

سعيد ويدراغو[1]

Ouedraogo Saidou

رضوان جمال الأطرش[2]

Radwan Jamal Elatrash

ملخص البحث:

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من تسليط الضوء على الطابع الشخصي والجمعي للمسئولية كما طرحه الدكتور محمد عبد الله دراز، وهو أحد أبرز المفكرين الإسلاميين الذين قدموا رؤية معرفية متعمقة لفهم الأخلاق والمسئولية في إطار القرآن الكريم. تأتي هذه الأهمية من كونها تسعى إلى دمج التعاليم القرآنية مع تحليل نظري معمق لأسس المسئولية في حياة الفرد والمجتمع، مستندة إلى ما قدمه دراز في كتابه الشهير "دستور الأخلاق في القرآن"، حيث استعرض الجوانب التشريعية والقيمية التي تضبط سلوك الإنسان. كما تهدف الدراسة إلى إثراء المجال المعرفي من خلال توظيف رؤية دراز لاستكشاف توازن المسئولية بين الفرد والمجتمع، بما يعزز فهمنا المعاصر للعلاقات الاجتماعية من منظور قرآني. وتكمن مشكلة البحث في غياب دراسات متخصصة تتناول الطابع الشخصي والجمعي للمسئولية كما صاغها محمد عبد الله دراز، ضمن إطار قرآني متكامل ورؤية معرفية شاملة، مما يبرز الحاجة إلى تحليل هذا الجانب لفهم أعمق للأخلاق والمسئولية في القرآن الكريم. واقتضت طبيعة البحث أن يعتمد على المنهج الاستقرائي وذلك من خلال تتبع النصوص القرآنية والآراء التي طرحها الدكتور دراز حول المسئولية والأخلاق، وكذلك على

[1] طالب دكتوراه في قسم دراسات القرآن والسنة، كلية عبد الحميد أبو سليمان لمعارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا o.saidou@student.iium.edu.my

[2] أستاذ مشارك في قسم دراسات القرآن والسنة، كلية عبد الحميد أبو سليمان لمعارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا radwan@iium.edu.my

المنهج التحليلي، وذلك لمناقشة واستيعاب النصوص والمفاهيم، وتفكيك أبعاد المسئولية الفردية والجمعية من منظور معرفي وفلسفي. وقد توصلت الدراسة إلى أن القرآن الكريم قدم نماذج متوازنة للمسئولية راعي فيها الفردية والجماعية معًا، بما يحقق الانسجام بين حقوق الفرد وواجباته تجاه المجتمع، كما أكدت رؤية الدكتور محمد عبد الله دراز على أن المسئولية في الإسلام ليست مجرد التزام قانوني، بل هي قيمة أخلاقية نابعة من الإيمان بالله، مما يربط الأخلاق بالشريعة في إطار موحد.

الكلمات المفتاحية: الطّابع الشّخصيّ والجمعي، المسئوليّة، محمد عبد الله دراز، دراسة فكرية معرفية، القرآن الكريم.

ABSTRACT

This study derives its significance from shedding light on the personal and collective dimensions of responsibility as articulated by Dr. Muhammad Abdullah Draz, one of the foremost Islamic thinkers who presented a profound epistemological perspective on understanding ethics and responsibility within the framework of the Qur'an. The importance of this research lies in its endeavor to integrate Qur'anic teachings with a thorough theoretical analysis of the foundations of responsibility in individual and societal life, drawing upon Draz's seminal work, The Moral Code of the Qur'an, in which he explored the legislative and ethical principles governing human behavior. Moreover, the study aims to enrich the academic field by employing Draz's vision to uncover the balance between individual and communal responsibility, enhancing contemporary understanding of social relations from a Qur'anic perspective. The research problem stems from the lack of specialized studies addressing the personal and collective dimensions of responsibility as conceptualized by Muhammad Abdullah Draz within a comprehensive Qur'anic and epistemological framework, highlighting the need for an in-depth analysis of this aspect to achieve a deeper understanding of ethics and responsibility in the Qur'an. The research methodology employs the inductive approach, by tracing Qur'anic texts and Draz's views on responsibility and ethics, alongside the analytical approach, to engage with and deconstruct texts and concepts, exploring the dimensions of individual and collective responsibility from an epistemological and philosophical standpoint. The findings reveal that the Qur'an provides balanced models of responsibility, harmonizing individual and collective aspects to achieve coherence between individual rights and societal duties. Additionally, Dr. Muhammad Abdullah Draz's vision affirms that responsibility in Islam is not merely a legal obligation, but a moral value rooted in faith in Allah, thereby uniting ethics and Shari'ah within a unified framework.

Keywords: Personal and Collective Dimensions, Responsibility, Muhammad Abdullah Draz, Epistemological Study, Qur'an.

مقدّمة

إن القرآن الكريم كتاب الله الخالد الذي جاء لهداية البشرية، جامعاً بين أبعاد التوجيه الفردي والجمعي ليحقق التوازن بين مسؤوليات الفرد تجاه نفسه وتجاه مجتمعه. فقد أكد القرآن على أن الإنسان مسؤول أمام الله عن أفعاله، مسؤوليةً فردية لا يسقطها عنه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164]. وفي الوقت ذاته، جعل القرآن من الأفراد عناصر فاعلة في بناء المجتمع، مشيراً إلى المسؤولية الجماعية التي تنهض بالأمة، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2].

ومن خلال هذا المنظور القرآني، لا تقتصر المسؤولية على الالتزام بالأوامر والنواهي الإلهية، بل تمتد لتشمل الإسهام في إصلاح المجتمع وحفظ تماسكه. وقد عالج الشيخ محمد عبد الله دراز هذه الجوانب في كتاباته من خلال تحليل عميق لنظام التوجيه القرآني، مؤكداً على التكامل بين البعدين الفردي والجماعي للمسؤولية، وكيف يحققان معاً التوازن بين الحقوق والواجبات في حياة الإنسان.

وعليه، فإن التعامل الصحيح مع القرآن الحكيم لا يكون من خلال قراءة الهذرمة أو القراءة القائمة على مجرد اللغة، فإن ذلك لا يوصل إلى تحقيق الوعي بمقاصد القرآن وتحقيق التوحيد الإلهي. كما أن التعامل مع القرآن لا يجوز أن يكون انتقائياً بل لا بد أن يكون ضمن الكليات العامة والمقاصد الأساسية له، دون أن تكون له حدود تتخطى حدود الزمان والمكان فهو كتاب لا ينضب عطاؤه ويستجيب لمختلف العصور والدهور. ولهذا فإن الصحابة الكرام تعاملوا معه بمسؤولية عظيمة ومنهج رائع يقود إلى الفهم والوعي بمقاصده. يصف ابن تيمية رحمه الله الصحابة الكرام بأنهم كانوا إذا تعَلَّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً[3].

[3] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ)، **الإيمان**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (عمان: المكتب الإسلامي، ط5، 1416هـ/1996م) ص135.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 8. No. 2 December (1446-2024)

تحديد مصطلح المسؤولية لغة واصطلاحاً:

المسؤولية لغة: إن كلمة المسؤولية في أصلها اللغوي تعني المطالبة والمؤاخذة، جاء في التنزيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: 36]. قال أبو عبيد: فَأَخْبَرَ أَنَّهُ تبارك وتعالى يَسْأَلُ عَمَّا أَحْدَثَتْ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ وَنوَتْهُ[4]. وقال الماوردي: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الإنسان هو المسئول عن السمع والبصر والفؤاد لأنه يعمل بها إلى الطاعة والمعصية. الثاني: أن السمع والبصر والفؤاد تُسأل عن الإنسان ليكونوا شهوداً عليه، وله، بما فعل من طاعة وما ارتكب من معصية[5].

المسؤولية اصطلاحاً: تعريف المسؤولية في القانون: هي المؤاخذة والتبعة، أو هي اقتراف أمر يوجب مؤاخذة فاعله[6].

النقطة الأولى: أمثلة توضح بعض الجوانب المنهجية المسؤولة الرصينة في الخطاب القرآني: ومنها ما ورد في التعامل المنهجي المقارن في توضيح دلالات قصة ابني آدم عليه السلام: قال تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّۘ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ 27 لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ 28 إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ 29 فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ 30 فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ31﴾ [المائدة: 27-31].

من خلال هذه الآيات أظهر عبد الله دراز دلالات المسؤولية بوصفها جزءاً أصيلاً في البناء الأخلاقي الذي يعرضه القرآن، وبالذات من خلال قصة ابني آدم، وعليه، فإننا نرى:

الطابع الشخصي: يظهر في قرار كل فرد منهما، حيث تحمل كل منهما نتائج أفعاله، فهابيل اختار أن يلتزم بخوفه من الله ، ولم يبسط يده بالعدوان، بينما قابيل استسلم لغرائزه النفسية، وقتل أخاه.

---

[4] أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي، **الطهور**، حققه وخرج أحاديثه: مشهور حسن محمود سلمان، (جدة: مكتبة الصحابة، ط1، 1994م) ص200.

[5] أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)، **تفسير الماوردي = النكت والعيون**، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت) ج3، ص243.

[6] منظمة المؤتمر الاسلامي بجدة، مجلة مجمع الفقة الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، ج8، ص580.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 8. No. 2 December (1446-2024)

الطابع الجمعي: في تعلم قابيل من الغراب كيفية التعامل مع تبعات أفعاله. فالمشهد يشير إلى التداخل بين الفرد والمجتمع في تحمل تبعات الأعمال، ومعالجة نتائجها.

المنهج المقارن الموضوعي. فعلى سبيل المثال مقارنة الشّيخ محمد عبدالله دراز حول نظام التّوجيه القرآني بالكتاب المقدّس:

الأول: طرق التّوجيه في العهد القديم، وذلك عندما ننظر إلى نوع العقوبات والمكافآت التي أقرت فيه جزاء عن حفاظ الوصايا الإلهية، ولننح جانبًا بعض الفقرات النادرة جدًّا، والتي نجد فيها إشارة إلى الخير الأخلاقي لذاته، ثم ننظر إلى الكيفية التي كان بها تعليل الأوامر، منها:

أولاً: عندما توجه الله سبحانه إلى الأسرة الإنسانية الأولى بشأن الفاكهة المحرمة، قال: وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه، ولا تمساه، لئلا تموتا[7].

ثانياً: حين خاطب ولدها الأكبر قابيل قاتل أخيه هابيل، قال: "فالآن ملعون أنت من الأرض ... متى عملتَ الأرض لا تعود تعطيك قوتها"[8]. في هذين المثالين وغيرهما منذ آدم عليه السلام حتى موسى عليه السلام، إلى آخر عهده لا نصادف أية إشارة إلى حياة بعد الموت، فكأنّما لم يكن لعقيدة الحياة الأخرى مكانٌ في أديانهم[9].

الثّاني: طرق التّوجيه في العهد الجديد: فحينما ننظر إلى هنا نرى توجيهاً آخر ونسمع نغمةً جديدةً كلّ الجدة، هنا يحسّ المرء بشعورٍ جليٍّ بأنّه قد انتقل من طرفٍ إلى أقصى طرفٍ مقابل له، وإنّ صلاتنا بالعالم الراهن بكلّ ما فيها من غنى وعظمة سوف تتقطّع، فهي بالنّسبة إلينا قيودٌ ينبغي أن نّتحرّر منها، نظراتنا لا تعود مثبتة على الأرض، بل إنها دائمًا موجهةٌ إلى السماء. فمن أمثلة ذلك كثيرة منها: قول يسوع المسيح لأحد المؤمنين الجدد،

---

[7] **الكتاب المقدس (العهد القديم)**، الاصحاح الثالث، سفر التكوين، أية 3، <https://st-takla.org/pub_oldtest/Arabic-Old-Testament-Books/01-Genesis/Sefr-Al-Takween_Chapter-03.html> آخر التعديل لهذه الصفحة 8 نوفمبر 2020م.

[8] انظر: محمد بن عبد الله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط10، 1998م) ص275-278.

[9] انظر: المصدر نفسه، ص280.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 8. No. 2 December (1446-2024)

قال له: إن أردت أن تكون كاملًا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنزٌ في السماء، وتعال اتبعني[10].

وهكذا غير هذا المثال نجد أنّ الأمل الإنجيلي مكانه دائماً هو الآخرة، ما بعد الموت عكس نظام التّوراة[11].

النقطة الثانية: المسؤولية الفردية والجماعية في العهد القديم

في العهد القديم، نرى أن التوجيه الإلهي يبدو أقرب إلى التوجيه المادي المباشر، حيث تركز العقوبات والمكافآت على هذه الحياة فقط، دون الإشارة إلى حياة بعد الموت. مثال ذلك:

تحذير الله لآدم وحواء من أكل الشجرة المحرمة كان مرتبطًا بالموت كعقاب دنيوي مباشر: «لا تأكلا منه، ولا تمساه، لئلا تموتا».

أما عقاب قابيل فقد كان دنيويًا أيضًا، حيث حُرم من خيرات الأرض: «فالآن ملعون أنت من الأرض... متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها».

هذه الأمثلة تشير إلى أن المسؤولية في العهد القديم، كانت تُدرك من منظور دنيوي بحت، دون إشراك أفق الآخرة أو المسؤولية الأخروية.

الثّالث: نظام التّربية القرآني نظام مسؤول شامل لحاجات الفرد والجماعة: هو نظام متكامل يربط بين نظريتين: النّظرية اليهوديّة ونقيضتها النّظرية المسيحيّة، فتجدهما تتصالحان داخل دعوة القرآن في توافق وانسجام مع زيادة عناصر أخرى أضافها القرآن، فزاد بها رحابة. وتبيّن بعد الإحصاء العام ندرة التّعاليم القرآنية التي اقتصرتْ في تعليل حكمتها على سلطة الأمر وحده. فلا يوجد في القرآن إلا عشر آيات فقط وكلّها مدنيّة، منها قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾، [البقرة: 275]، وسورة [النّساء:7]. وليس من أسلوب القرآن عادةً استخدام الصّيغة: (الكانتية) نحو: (افعل كذا لأنّه كذا فرض) مستنداً إلى الشّكل المجرد من مادّته. غير أنّ عدم وجود تصريح العلة أيضاً لا ينفي بالضّرورة عدم وجود مضمون لها. وذلك أنّ الإيمان يقتضي خضوعاً غير مشروط

[10] **الكتاب المقدس (العهد الجديد)**، الاصحاح التاسع عشر، الإنجيل متى، أية 21، <https://st-takla.org/pub_newtest/Arabic-New-Testament-Books/03-Luke/Enjil-Loka_Chapter-18.html> آخر التعديل لهذه الصفحة 8 نوفمبر 2020م.

[11] انظر: المصدر نفسه، ص280- 281.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 8. No. 2 December (1446-2024)

للأمر الإلهي، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾، [الأحزاب: 36]، ومع اسم هذا الإيمان إلاّ أننا نستطيع أن نقف على سببٍ خفيٍّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا**﴾، [النّساء: 66]، والأمر الإلهي يتمثّل لنا دائماً متّصفاً بالعلم والحكمة والإقناع الكامل بحيث يتحقق له انقياد ضمائرنا الكامل، وبعيداً عن الاستبداد والتّحكم، قال تعالى: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾، [النّساء: 11]، وغير هذه الأحكام الآمرة، نجد أنّ الوصايا القرآنيّة تعتمد على أساليب مختلفة وأسس متنوّعة أخرى يمكن حصرها في ثلاثة مجموعات كبيرة:

أولاً: المسوغات الذاتيّة[12]، ويقصد بها: الرّجوع في دعم التكليف عقليًّا إلى قيمة أخلاقية مرتبطة بهذا التكليف، وهي قيمة "إيجابية" إن دلّ على أمرٍ، والعمل به، أو"سلبية" حين تتصل بنهي أو عصيان. وهي قيمةٌ موضوعيّةٌ، كالحق والباطل، أو قيمةٌ ذاتيّة كبصر القلوب وعماها. وهناك ثلاثة نماذج تربط بين القيمة والموضوع وعلى أساسها نستطيع أن نقدر الموضوع ونحدد قيمته سواء كان فعلاً أو قاعدة أو موقفًا أو نظريةً. الأول: إما أن ترجع قيمة الموضوع إلى طبيعته الخاصة. الثاني: أو أن تستخلص قيمته من حالة سابقة هو أثر لها، الثالث: أو حالة لاحقة هو سبب فيها. وكل هذا المراد هو التوصل إلى حكم أخلاقي وبالتالي فإن القيمة المطلوبة ينبغي أن تتصف بنفس الصفة الأخلاقية مع وجود الارتباط بالموضوع طبيعيًّا وليس ارتباطاً اتّفاقيّاً ناشئاً عن حكم تشريعيٍّ[13].

القرآن يعتمد على تقديم التكاليف بناءً على قيم أخلاقية ذاتية وموضوعية، مثل الحق والباطل، أو بصر القلوب وعماها، والشيخ دراز يُظهر أن التوجيه الأخلاقي للفرد يعتمد على الربط بين القيمة والموضوع بطريقة موضوعية وغير اتفاقية، مما يدفع الإنسان إلى إدراك مسؤولياته تجاه أفعاله استنادًا إلى وعيه الذاتي، وفهمه لأثر هذه الأفعال. ومن الأمثلة على ذلك والتي تشمل ثلاثة أنماط لتقدير القيمة:

- **طبيعة الموضوع**: أن تكون القيمة متأصلة في طبيعة الفعل ذاته.

[12] انظر: المصدر نفسه، ص284، ومحمد عبدالله دراز، **مختصر دستور الأخلاق في القرآن**، ص83.

[13] انظر: محمد عبدالله دراز، **مختصر دستور الأخلاق في القرآن**، ص83.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 8. No. 2 December (1446-2024)

- **الحالة السابقة:** أن يكون الفعل مرتبطًا بنتائج ماضية أو آثار نشأت عنه.
- **الحالة اللاحقة:** أن يُقدر الفعل بناءً على نتائجه المستقبلية.

تحقيق الفرد للحرية الأخلاقية:

- القرآن يُوجه الفرد بطريقة تقنع عقله ووجدانه، بعيدًا عن الإكراه والاستبداد، كما في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، كما يُعزز القرآن مسؤولية الفرد من خلال إقرار حرية الاختيار، مما يجعل الامتثال للتكاليف مرتبطًا بالقناعة الذاتية.

ثانياً: اعتبارات البيئة، القرآن يراعي سياق البيئة التي يعيش فيها الأفراد، مما يعني أن الوصايا الأخلاقية تتفاعل مع الظروف المحيطة بالمجتمع. ذلك أن هذه الاعتبارات تساعد على تأطير المسؤولية الجماعية بما يناسب احتياجات المجتمع وظروفه، مما يضمن انسجام الفرد مع محيطه.

ثالثاً: اعتبارات النّتائج المترتبة على العمل[14]. فمن أمثلة المجموعة الأولى: من نظرية القرآن العامة نجد أنّه يحرص على أن يعلمنا ما هو منهجه، وما ليس فيه بذاته، وما هو منفيّ عنه من النقائص أو مثبت له من الصّفات الخاصة القادرة على إقناع العقول المجهول بالحقيقة؛ فيُعلن أنّ توجيهه ليس بقضية تكتسب، وليس بنظام يبتغي مؤسسه نيل الأجر، مصدقاً لقوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنفال:90]، ويعلن أيضاً أنّه ليس نظاماً يفرض نفسه بالإكراه والاستبداد والديكتاتورية ولكنّه رسالة للبلاغة وتعليم يعرض على أساس موافقة الحرية، قال تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: 256][15].

فالقرآن يحث على مراعاة النتائج المستقبلية للأفعال، سواء كانت فردية أو جماعية، مما يعزز الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين، وخير مثال على ذلك، هو التأكيد على أن الفعل الأخلاقي يجب أن تكون له نتائج إيجابية، ومتصلة بطبيعة الفعل، وليس قائمة على اتفاقيات عرضية.

النقطة الرابعة: مقارنة المبادئ الأخلاقية بين التوراة والقرآن: منها: ما جاء في التوراة "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي" هذا النص يقارب ما في القرآن، قال تعالى: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**﴾، [الإسراء: 23][16]. ومن

---

[14] انظر: محمد عبد الله دراز، **مختصر دستور الأخلاق في القرآن**، ص82-83.

[15] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص286-287.

[16] انظر: محمد عبد الله دراز، **مدخل إلى القرآن الكريم**، تحقيق: محمد عبد العظيم، (القاهرة: دار القلم، ط5، 1424هـ/ 2003م)، ص99.

جانب آخر مقارنته بين نظريات الغرب من المفكرين والفلاسفة ونظريات الشرق؛ فهذا المنهج وغيره فعلاً يساعد في فهم مدلول النص القرآني وتطبيقه بقضايانا المعاصرة الاجتماعية.

فالمسؤولية الفردية في هذه الفقرة تبرز من خلال التوجيهات الأخلاقية التي تركز على العبادة الحصرية لله سبحانه وتعالى، ويشير الشيخ دراز إلى المقارنة بين ما جاء في التوراة، وما في القرآن الكريم، هذه المقارنة تدل على توجيه أخلاقي أساسي في الكتابين المقدسين، وهو عبادة الله وحده، وهذا يشكل قاعدة أساسية في المسؤولية الفردية.

فالتطبيق الفردي والجماعي: فالفرد مطالب والجماعة مطالبة باتخاذ قرار شخصي، وتأكيد التزام الجميع بتوحيد الله، هذا التوجيه يُلزم الجميع بأن يكون كل واحد منهم مسؤولاً، ويعيد تقييم أفعاله، وعلاقته بالله بما يتناسب مع هذا المبدأ الأخلاقي، ذلك أنه لا مجال للمساومة في هذا التوجيه، وهو ما يقتضي من الفرد والجماعة تفعيل الإيمان الشخصي والالتزام بمبدأ "لا إله إلا الله" من خلال التصرفات والأفعال اليومية.

النقطة الخامسة: تفسير الآيات وربطها بالسّياق الاجتماعي حسب الموضوعات: لقد قدّم لنا الشّيخ محمد عبدالله نماذج حول الآيات التي لها علاقات بالمسائل الاجتماعية كثيرة، عند كلامه عن الحياة الزوجيّة منها،

أولاً: روابط مقدسة ومحترمة، قال تعالى مبيّناً: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النّساء: 1]. تدعو هذه الآية الأفراد إلى مسؤولية عظيمة تجاه الله تعالى في كيفية التعامل مع العلاقات الأسرية، فالفرد هنا مدعو إلى تقوى الله، والعمل بمقتضى هذه المسؤولية في حياته الاجتماعية، وخاصة في النطاق العائلي.

ثانياً– الزواج له غايات منها: سلام داخليّ، مودّة، ورحمة، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الروم: 21]. ومنها: تكثير النّسل، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً**﴾ [النّحل: 72]. هذه الآيات تبرز المسؤولية الفردية في احترام هذه الغايات الروحية والعاطفية في الزواج، ويُتوقع من كل فرد أن يسعى لتحقيق هذه القيم السامية مع شريك حياته.

ثالثاً: أن تكون هناك مساواة في الحقوق والواجبات، قال تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ [البقرة: 228]. تؤكد هذه الآية أن المسؤولية الفردية لا تقتصر فقط على حقوق الفرد

بل تشمل أيضًا واجباته تجاه الآخر. وتؤسس هذه الآية مسؤولية فردية في إطار العدالة والمساواة بين الجنسين، وهو ما يتطلب من كل فرد أن يلتزم بمسؤولياته دون تمييز.

رابعاً: أن تكون بين الزوجين تعامل إنسانيٌّ، قال تعالى: ﴿**وَأْتَمِرُوا بينَكُمْ بِمَعْرُوفٍ**﴾ [الطلاق: 6]، فوجود هذا التّعامل الإنساني ينفي عنهما التّنازع والتّنافر[17]. هذا الخطاب هو دعوة للقيام بتعاملات إنسانية، وهو مبدأ يمكن تطبيقه على مستوى المجتمع ككل، حيث يُتوقع من الأفراد والمجتمعات التفاعل مع بعضهم البعض بروح من الإحسان والرحمة.

فالتوجيه في الآيات المتعلقة بالزواج يقدم نموذجًا اجتماعيًا يجب أن يعمل الجميع من خلاله. عندما يُذكر في القرآن أن الزواج علاقة مقدسة تسهم في تكوين الأسرة، فإن ذلك يُلقي **مسؤولية جماعية** على المجتمع بأسره، لتوفير بيئة تدعم هذه القيم.

وهذه المنهجيّة التي سار عليها الشّيخ محمّد عبد الله دراز تتمحور في عنصرين اثنين: العنصر النّظري والعنصر التّطبيقي.

ويُراد بالأوّل: وضع القواعد الأساسيّة أو تأسيس القوانين التي يُستخلص منها مبادئ الأخلاقي في القرآن، وتندرج تحت هذه القواعد موضوعات فرعيّة وتقسيمات عديدة، فعلى سبيل المثال كتابه: "دستور الأخلاق في القرآن" إذا قرأته تجدْ أنّ محمّد عبد الله دراز عندما أراد أن يّتكلم عن نظريّة الأخلاق في القرآن، ومقارنتِها بالنّظريات الأخلاقيّة القديمة والحديثة؛ وضَعَ لها قواعد وقوانين، ومن ذلك:

1. فكرة المسؤولية، بعد تعريفها، يُقَسِّمُ هذه الفكرة إلى موضوعات متنوّعةٍ منها: الأول: تحليل فكرة العامة للمسئولية.

2. شروط المسئولية الأخلاقيّة والدّينيّة، ويتفرع عن ذلك أشياء، منها:

أ. **الطّابع الشّخصيّ للمسئوليّة**: أول ما يجب ذكره هو أن المسئولية الأخلاقية والدينية شخصية محضة، ولسوف يكون من باب الإطالة أن نذكر جميع النصوص القرآنية التي تقر هذا المبدأ الأساسي، ولذا نجتزئ بعضها، وهي التي تنص على هذه الحقيقة في ألفاظ تامة الوضوح، قوله تعالى في آيات، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [البقرة: 286]، ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [النساء: 111]، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ

[17] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص216-217.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 8. No. 2 December (1446-2024)

وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ [الإسراء: 15]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [لقمان: 33]، وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: 17]، وكذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأحقاف: 19]، وما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ 39 وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: 39-40].

يعلق الأستاذ محمد عبد الله دراز على هذه الخطابات القرآنية التي تثبت أن أن الثواب والعقاب لا يمكن أن يتأتى فيهما أي تحويل، أو امتداد، أو اشتراك، أو التباس، حتى بين الآباء والأبناء, وإذا كان آباؤنا وأجدادنا مسئولين مثلا عن الأمثلة التي لقنوها لنا، والعادات التي أخذناها عنهم. وإذا كنا مسئولين عن الطريقة التي استعملنا بها هذه التركة، فلا يجب مطلقاً أن نتحمل معهم وزر ما عملوا: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 134]. وبالتالي فقد محيت بفضل هذه النصوص صعوبة الخطيئة الأصلية التي ارتكبها سيدنا آدم وحواء عليهما السلام. ذلك أن آدم عليه السلام لم يتجرأ على فعل تلك الخطيئة، لخبث في طبيعته، أو سوء في إرادته وليس يكفي أيضا أن يقال: إنه انقاد لإغراء قوي، من خلال كلمات خداعات صادرة من عدو لئيم، أقسم له بالله، ليؤكد لآدم وحواء صحة مزاعمه، والتي مفادها يكون: أن حين يأكل الفاكهة المحرمة فربما يصبح نقياً كنقاء الملائكة، خالداً كخلود الإله، قال تعالى وهو يبين عظم جرم إبليس حين خدع آدم وحواء بقسمه بالله، قال تعالى عنه: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: 20]، وقال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21][18]. أي فحلف لهما بالله، إنه لهما لمن

[18] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص149.

الناصحين، يقول ابن أبي حاتم عن قتَادَةَ عَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ لَهُمَا: إِنِّي خُلِقْتُ قبلَكُمَا وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمَا فَاتَّبِعَانِي أُرْشِدُكُمَا. وَإِنَّمَا يُخْدَعُ الْمُؤْمِنُ- بِاللَّهِ. قَالَ قتَادَةُ: وَكَانَ بعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يقُولُ: مَنْ خَادَعَنَا بِاللَّهِ- خَدَعَنَا[19].

يعلق الأستاذ محمد عبد الله دراز بأن ما فعله آدم وحواء عليهما السلام كان غلطة نبيلة، رغم تحصنه منذ البداية ضد المكائد المحتملة من عدوه، لكنه نسي في لحظة لم يجد لنفسه فيها إرادة صامدة، وصدق الله تعالى فيه إذ قال: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: 115]. والتحليل المنهجي الذي اتبعه الأستاذ دراز حينما قال: إن النية الطيبة لا تشفع في مثل هذه الظروف، لأن النسيان لم يكن للأمر في ذاته، بل للهدف منه، وأيا ما كانت الدوافع النبيلة وراء المخالفة، فإنها لا يمكن أن تعرينا من التزام مطلق واضح المعالم والحدود. فخطيئة آدم كانت إذن أثراً من آثار ضعف عارض، وجهد قاصر في مراعاة الواجب. ومن هنا لم تفسد فطرة الإنسان الأول، بحيث تستلزم تدخل "مخلص" غيره نفسه، إذ كان يكفيه أن يعترف بخطيئته، ويظهر ندمه، لا ليغسل دنسه، وتعود إليه سريرته النقية، كما كانت فحسب، ولكن ليربي هذا التائب الجديد، ويرفع إلى درجة المصطفين الأخيار، ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122] [20].

دراسة وتحليل لما سبق:

1. الشيخ دراز يبرز أن المسؤولية هي "شخصية محضة" تتعلق بالفرد ذاته، مما يعني أن كل فرد مسؤول عن أفعاله واختياراته. ومن الناحية الإنسانية، يعزز هذا التصور الفهم العميق للحرية الشخصية وحقوق الإنسان، حيث يتم تقييد الأفعال الفردية بعواقب أخلاقية ودينية تُكسب الفرد مسؤولية عن سلوكه. فالإنسانية، بهذا المعنى، تعتمد على إدراك الفرد لذاته ككائن فاعل في المجتمع، مع قدرة على التأثير إيجابيًا أو سلبيًا فيه.

2. الآيات التي عرضها الشيخ دراز مثل " ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286] تبرز أهمية توازن النفس، وتقدير الطاقات الشخصية. على المستوى النفسي، هذه الآيات تدعونا

[19] أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: 327هـ)، **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، (المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط3، 1419هـ) ج5، ص1451.

[20] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص150-151.

لتفهم حدود الفرد وقدرته على التكيف مع التحديات. فهي تشجع على تقبل الذات والاعتراف بالقدرات والقيود الشخصية. من خلال هذه الرؤية، لا يُحاسب الإنسان على ما لا يقدر عليه، ما يخفف من الشعور بالذنب والإحباط ويعزز الصحة النفسية.

3. من المنظور التربوي، يعكس هذا المفهوم ضرورة تربية الأفراد على المسؤولية منذ الصغر؛ فالتعليم عن المسؤولية لا يتعلق فقط بالالتزام بالأوامر والنواهي، بل بتطوير فكر مستقل لدى الأفراد يجعلهم يدركون عواقب أفعالهم بشكل مباشر. وفي سياق التربية، من المهم بناء أساسيات الوعي الشخصي والوعي الاجتماعي، بحيث يصبح الشخص قادرًا على التفاعل مع القيم الأخلاقية وفقًا للمعايير القرآنية مثل العدالة، المساواة، والإحسان.

4. في الجانب الاجتماعي، يعزز دراز فكرة أن المسؤولية لا تقتصر على الأفراد فقط، بل تتوزع بين الأفراد والمجتمع ككل. فالآيات مثل ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: 15] تؤكد على أن الأفراد لا يتحملون أخطاء غيرهم، وهذا يساهم في تقوية النسيج الاجتماعي والعدالة بين الأفراد. المسؤولية الاجتماعية وفق هذه الرؤية تعني أن المجتمع يجب أن يكون مكانًا يعزز العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات.

5. بالنسبة لخطاب الخطيئة الأصلية في الإسلام، يوضح دراز أن الخطيئة التي ارتكبها آدم وحواء كانت خطأ ناتجًا عن ضعف إنساني وليس من فساد جوهري في طبيعتهما. من الناحية النفسية، يعكس ذلك فهمًا عميقًا للضعف البشري واعترافًا بأن الأفراد قد يخطئون، لكنهم قادرون على التوبة والتصحيح. هذا يساهم في بناء نفسية متوازنة بين الاعتراف بالخطأ والتعلم منه.

النقطة السادسة: الخروج عن قاعدة الطّابع الشّخصيّ للمسئوليّة: هناك مثالان خرجا عن هذه القاعدة، ولم يتوافقا مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية، وهما:

المثال الأول: موجود في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: 13].

اكتفى الأستاذ دراز في التعليق على هذا المثال بالقول: إن هذين المثالين جديران في نظرنا بالدراسة، حتى نرى إلى أي مدى يمكن أن يضعفا أو يدعما المبدأ العام. لكنه توصل إلى نتيجة مفادها: إن المسئوليات الفردية تبقى إذن كاملة، وتلك نقطة مفروغ منها، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ

[العنكبوت: 12]. وكل ما في الأمر أن تذييلاً للثواب والعقاب يأتي –فيما يبدو– من خارج فضلاً عما ينتج من العمل الفردي[21].

ثم تحدث عن خلاصة الموضوع، من خلال بيان وجه الحقيقة في هذه المسألة، فقال متسائلاً: ما هذا الثقل الإضافي الذي ينضاف إلى حساب الظالمين؟ فأجاب: إنهم المتكبرون الذين داروا ظهورهم للهدي الإلهي، وسعوا في إضلال الآخرين. وهؤلاء الأشخاص –فيما يحدث القرآن– سوف يتحملون المسئولية الكاملة عن أعمالهم الخاصة، ويشاركون في مسئولية هؤلاء الذين أضلوهم، قال تعالى في وصفهم: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25].

ومن المعلوم أن الضحايا لن يعفوا مطلقاً من خطئياتهم التي ارتكتبوها، نتيجة استسلامهم للضلال، ذلك أن عبء الأتباع لن يصير أقل ثقلاً، وقد بين القرآن ذلك من خلال مناقشة وحوار بين الذين ٱتَّبَعُواْ والذين ٱتُّبِعُواْ، قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ 166 وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 166-167].

يقول الأستاذ دراز: ولكن بما أن الرعاة –فضلاً عن مسلكهم الشخصي– قد أسهموا بقدر معين في معصية القطيع، فإنهم يجدون أنفسهم ذوي مسئولية إضافية، ناشئة عن علاقة السببية التي يتحملونها بالنسبة إلى جرائم أخرى غير جرائمهم. فهم مسئولون من وجهين؛ لأنهم كذلك مذنبون من وجهين، والمجرم الذي يقترف كثيرا من الفواحش لا يمكن بداهة أن يعامل بنفس الطريقة التي يعامل بها من لم يرتكب سوى واحدة، والله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل: 88]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فعُمِلَ بِهَا بعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا ينقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فعُمِلَ بِهَا بعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا،

[21] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص152.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 8. No. 2 December (1446-2024)

وَلَا ينقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ[22]. نتيجة ما كان قد ظهر من تعارض، أنه فليس هناك أثر من التعارض، حتى ولا الاستثناء، الذي يرد على القاعدة العامة.

مناقشة المثال الأول:

1. في القرآن الكريم، المسؤولية فردية بحتة، كما جاء في الآيات مثل قوله تعالى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ**﴾ [البقرة: 286]، مما يعكس القيمة الأساسية للعدالة الإنسانية التي تكرم الفرد وتجعل من الأفعال الشخصية أساسًا للحساب. يطرح دراز، من خلال الآيات التي يستشهد بها، فكرًا يعكس تفاعل الإنسان مع نتائج أعماله وتبعات خياراته، مما يعزز من فكرة المساءلة الفردية أمام الله، فلا بد من التركيز على التربية الفردية، كي تكون تربية مسؤولة، حيث تبدأ من الفرد نفسه، كما تبين الآيات التي يستشهد بها دراز. فالتربية الدينية الإسلامية تركز على تطوير الوعي الشخصي لدى الأفراد وتعزيز فكر المسؤولية الذاتية. وفي التربية الحديثة، يمكن الربط بين هذه الفكرة والبرامج التربوية التي تحث على اكتساب السلوك المسؤول والتفكير النقدي، لكن هناك فكرة مفادها أن الرعاة والمربين يتحملون جزءًا من المسؤولية عن أفعال من يتبعونهم تمثل دعوة قوية لدور القادة التربويين في المجتمع؛ فالقائد أو المعلم الذي يقدم مثالًا سيئًا أو يضلل الآخرين يتحمل مسؤولية إضافية عن الضلال الذي ينشأ بسبب أفعاله. وهذا يترجم إلى ضرورة تعزيز القيم النبيلة في المربين وضرورة أن يكونوا قدوة للأجيال القادمة.

2. **العدالة الإلهية:** الفكر القيمي القرآني لا يعفي الأفراد من مسؤولياتهم مهما كانت الظروف؛ حتى في حالات الفتن والضلال، لا يتم تحميل أتباع الضلال المسؤولية عن أعمال قادتهم إلا بما اكتسبوا من خطايا نتيجة اتباعهم، مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ**﴾ [العنكبوت: 13]. هذا يضمن العدالة، إذ لا يحمل أحد ما لا طاقة له به.

[22] الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، انظر: **الصحيح**، كتاب العلم، باب: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً، وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدًى أَوْ ضَلَالَةٍ، رقم الحديث: 15 - (1017).

3. **الوعي بالمسؤولية:** التحليل الذي قام به دراز يبرز أهمية الوعي الفردي بالمسؤولية. فكل شخص يتحمل مسؤولية أفعاله، ولا يمكن تحميل أحد نتائج خطايا الآخرين؛ وهذا يعزز من مفهوم المسؤولية الشخصية في بناء الهوية النفسية للإنسان، حيث يشعر الفرد بثقل أفعاله وتأثيرها على مصيره.

4. **التوبة والندم:** في تحليل دراز لخطأ آدم عليه السلام، يعكس فكرة نفسية هامة حول النية الطيبة والضعف البشري في مواجهة المعصية. النية الطيبة لا تبرر السلوك الخطأ، ولكن التوبة والتفكير في العمل الذي يتم قد يعيدان للفرد مكانته ويفتحان له طريق الإصلاح النفسي. هذا يواكب مفهوم الندم في النفس البشرية، حيث يمكن أن يعْتَبر الاعتراف بالخطأ والندم بمثابة تصحيح للفطرة الإنسانية.

5. **التأثير الجماعي على المسؤولية:** إن النموذج الذي قدمه دراز حول تحمل الأتباع مسؤولية إضافية نتيجة اتباعهم لآخرين ضالين يعكس جانبًا اجتماعيًا بالغ الأهمية، حيث لا يعيش الإنسان بمعزل عن الآخرين. المجتمع يمكن أن يؤثر بشكل كبير على الأفراد، سواء في الاتجاهات الإيجابية أو السلبية. من هذا المنطلق، يمكننا أن نفهم التحدي الاجتماعي في بناء مجتمع مسؤول، يُحفَّز فيه الأفراد على اختيار القيم الصائبة والتصرفات السليمة. في المجتمعات، المسؤولية لا تقتصر على الأفراد فحسب، بل تشمل أيضًا التأثيرات المتبادلة بين الأفراد في محيطهم الاجتماعي.

6. **التوزيع العادل للأعباء:** فالنصوص القرآنية تشير من خلال مقاصدها إلى أن الأتباع لن يحملوا مسؤولية ما فعله قادتهم دون أن يتحملوا جزءًا من وزر خطاياهم يركز على مبدأ العدالة الاجتماعية. إن معاقبة الأتباع بسبب الضلال لا يعني أن القادة يُعفَون من المسؤولية، بل يثبت القرآن أن أعباء المجتمع يجب أن توزع على الجميع وفقًا لمساهماتهم وأفعالهم.

المثال الثاني: وهو موجود في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطور: 21].

وصف الأستاذ دراز هذه الحالة بأنها عصية على كل التفسيرات، ذلك أن أولادنا لما كانوا أعمالنا، فإن نشاطهم يستمر ويكمل نشاطنا، ومن ثم كانوا مضافين إلى حسابنا، ولكن كيف نسوغ القضية العكسية مع وجود نصوص قرآنية، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ

عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ [لقمان: 33]، ومثل ما قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: "وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[23]. لقد قال المفسرون، كيما يتخلصوا من هذا التعارض، إن آية الطور الأولى لا تتعلق مطلقا بمجازاة، ولكنه محض فضل يسبغه الله عليهم، غير الجزاء المستحق لهم، وعليهم فهم يضيفون أن فضلا من هذا القبيل لا يصح أن يخضع لقاعدة. وكل ما تريده الأخلاق هو ألا يحرم شخص من حقوقه: قال تعالى: فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ 7 وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ [الزلزلة: 7-8]. فإذا ما قدمت العدالة المطلقة لكل إنسان حقه فلا شيء يحول دون أن ينعم الله على من يشاء بأكثر مما يستحق[24].

النقطة السابعة: الأساس القانوني للمسئوليّة: فالقرآن يعلمنا أن أحدا لن يحاسب على أفعاله دون أن يكون قد أعلم مسبقاً بأحكامها، من طريقين مختلفين: داخلية، وخارجية[25].

الطريق الداخلي: وذلك من خلال استخدام القدرات والملكات الفطرية، واستشارة العقل، واستبطان القلب، وتتبع الغرائز الخيرة. وهذا بوسع كل إنسان أن يعرفه على تفاوت بين الأفراد في تلك المعرفة[26].

الطريق الخارجي: وذلك من خلال إعلام الله لنا، بواجباتنا، وبطريقة خاصة وإيجابية، ومن يقول بهذا، يتمسك بحرفية القرآن الكريم، من خلال قوله تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا [الإسراء: 15]، وقوله تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ [القصص: 59].

ثم يطرح سؤالاً حول الوسطاء الربانيين، فيقول: لماذا أوجب الله مطلقا على نفسه أن يعلم الشعوب بواجباتها بوساطة الرسل، الوسطاء بينه وبينهم؟ولماذا لم يتركهم لنورهم الفطري وحده؟

الجواب كما بينه القرآن: قال تعالى: رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ [النساء: 165]. والحقيقة أن الله سبحانه أوجب على نفسه أن يعلم الناس قبل أن يحملهم مسئوليتهم؛ لأنه يرى من الظلم تعذيب القرى التي تغفل

---

[23] الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، انظر: **الصحيح**، كِتَابُ الذِّكْرِ، وَالدُّعَاءِ، وَالتَّوْبَةِ، وَالِاسْتِغْفَارِ، باب: فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَعَلَى الذِّكْرِ، رقم الحديث: 38 - (2699).

[24] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص157.

[25] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص163.

[26] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص163.

عن واجباتها؛ لأنها لم تعرفها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ 208 ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: 208-209].

مناقشة المثال الثاني: تظهر معالم هذا المثال في النقاط الآتية:

- **العدالة الإلهية من خلال فهم آية الطور في سياق العلاقة بين الإنسان وذريته.** عندما يقول الله عز وجل في القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطور: 21]، يطرح مفهومًا عميقًا حول الإيمان والتأثير النفسي للآباء على الأبناء. فهو قد يعكس هنا استمرارية الأثر النفسي للأفعال، سواء كان ذلك من خلال تقوية الإيمان أو من خلال تبني السلوكيات الأخلاقية. هذا النوع من التأثير يعد جزءًا من الإرث النفسي الذي يمكن أن يُنتقل بين الأجيال. وبالتالي، قد نجد أن التأثير النفسي للأبناء من جهة الوالدين يمكن أن يؤدي إلى تطور السلوكيات الدينية والإيمانية.
- **النضج الأخلاقي:** من الناحية النفسية أيضًا، يسهم الإيمان بالآيات التي تتعلق بالعدالة الأخلاقية في بناء شخصية الفرد. فالإيمان بفكرة أن الإنسان سيحاسب على أعماله الخاصة، كما هو الحال في الآية: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ 7 وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7-8]، تساعد الأفراد على تحمل مسؤولياتهم بشكل فردي، مما يعزز التقدير الذاتي والنضج الأخلاقي.
- إن معالم التفسير العلمي للمسؤولية الفردية والجماعية تظهر من خلال تأثير الأفعال الفردية، ومن خلال قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ 208 ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: 208-209]. تذكيرًا بأن الأفراد في المجتمعات المختلفة يتفاعلون مع موروثاتهم الثقافية والتربوية، وأعظمها تأثير الوالدين على الأبناء، كما جاء في آية الطور، يمكن أن يُنظر إليه من خلال العلم النفسي وعلم الاجتماع في فهم كيفية انتقال القيم والأخلاقيات عبر الأجيال.
- **المسؤولية التربوية في نقل المعرفة:** كما في الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: 15]، تُشير إلى دور المعلم أو الرسول في إبلاغ الرسالة. وفي التربية الحديثة، يعتبر هذا دورًا أساسيًا في التأكد من أن الأفراد تلقوا المعرفة بشكل صحيح، قبل أن يتحملوا المسؤولية عن أفعالهم. يشير هذا إلى أهمية المناهج التربوية في تقديم المعرفة الأخلاقية والدينية التي توضح المسؤوليات الإنسانية.

- **المسؤولية الفردية والجماعية**: هناك سؤال تثيره هذه الآيات الكريمات حول التوازن بين الفرد والجماعة في المسؤولية. هل الشخص ملزم فقط بأفعاله الخاصة، أم أن الجماعة تتحمل جزءًا من المسؤولية أيضًا؟ فالآيات تشير إلى المسؤولية المشتركة بين الآباء والأبناء وهي تفتح بابًا لفهم جديد في فلسفة المسؤولية الجماعية والفردية، حيث يتم توجيه التأثيرات عبر الأجيال.

النقطة الثامنة: الجانب الاجتماعي للمسئوليّة: يرى ابن حزم رحمه الله بروحه الاجتماعية التي أدركها من طبيعة الدين، أن افضل الأعمال ثلاثة متدرجة، وكلها تضع الفرد موضع المسؤولية الاجتماعية: أولها وأهمها: عمل عالم يعلم الناس دينهم؛ وثانيها: الحاكم العادل الذي يشارك رعيته في كل عمل عملوه في ظل عدله وامن سلطانه؛ وثالثها: مجاهد في سبيل الله، وهكذا تتدرج مراتب العمل عند ابن حزم من أوسع حدوده الاجتماعية إلى أصغر المراتب الفردية[27].

من وجهة نظر أخرى، يتناول الشيخ محمد عبد الله دراز الجانب الاجتماعي للمسؤولية في الإسلام، مشيرًا إلى أن شروط المسؤولية الفردية أمام الله تتطلب أن يكون العمل شخصيًا، إراديًا، ومبنيًا على وعي ومعرفة. ومع ذلك، تتغير هذه الشروط عندما يتعلق الأمر بالمسؤولية تجاه المجتمع، حيث تصبح العلاقة بين الفرد والمسؤولية أقل تحديدًا. يوضح النص الفرق بين المسؤولية الإصلاحية (المدنية) التي تتسم بالمرونة، والمسؤولية الجزائية (العقابية) التي تظل مرتبطة بالأخلاق، وتتطلب البلوغ والعقلانية. ويشير إلى دراسة بول فوكونيه التي أوضحت أن هذا التحديد الدقيق للمسؤولية في المجتمعات الأوروبية له أصول حديثة نسبيًا، مستندة إلى أمثلة من شعوب ومجتمعات متنوعة تاريخيًا[28].

يشير الأستاذ دراز من خلال حديثه عن المسؤولية الاجتماعية إلى أن الأطفال، المعتوهين، والحيوانات كانت تُعتبر مسؤولة عقابيًا في بعض المجتمعات القديمة، حيث تم محاكمة الحيوانات والأشياء كما لو كانت مسؤولة عن أفعالها. يذكر المؤلف أن هذه المسؤولية لم تكن ظاهرة بدائية، بل استمرت حتى في الحضارات الكبرى مثل بني إسرائيل، اليونان، وروما، حيث كانت الحيوانات تُعاقب على أفعالها، كما في مثال الثور القاتل الذي يُرجم حسب

[27] أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، رسائل ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1980-1983)، ج3، ص31.

[28] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص222.

أوامر التوراة، أو يُقتل وفقًا لأفلاطون. وتُظهر الدراسة أيضًا أن هذه الظاهرة تطورت في أوروبا المسيحية، حيث شهدت فرنسا في القرن الثالث محاكمات ضد الحيوانات[29].

ثم تناول الدكتور محمد عبد الله دراز مسألة معالجة الضمير الإنساني للأطفال والمجانين، حيث لم يُنظر دائمًا إليهم نظرة ظلم في الجزاء. في قانون الألواح الاثني عشر، كانت مسؤولية الأطفال غير البالغين مخففة ولكن ليست باطلة تمامًا، وتم تطور القوانين لاحقًا ليُعفى الأطفال الصغار من العقوبات، رغم وجود حالات نادرة مثل إعدام طفل في الثامنة من عمره في إنجلترا. كما كانت العقوبات ضد المجانين تخفف في فرنسا من قبل البرلمان، إلا أن الاعتداء على الذات الملكية لم يشمل تخفيفًا للعقوبة. وبالتالي، يظهر أن تقليص العقوبات ليقتصر على الإنسان البالغ السوي هو تطور متأخر في المسؤولية القانونية[30].

في القانون الصيني، كان القاتل غير المتعمد يعاقب بالجلد مائة جلدة والنفي. وفي التوراة، كان يُعاقب القاتل غير العامد بالنفي، ويجوز لصاحب الدم قتله إذا غادر المنفى قبل انتهاء المدة. في القانون الكنسي، كانت تُفرض كفارات قاسية للتكفير عن الخطايا غير الإرادية بسبب الجهل. أما في إنجلترا، حتى أوائل القرن التاسع عشر، كان القاتل غير المتعمد يُدان، ويُصادر ممتلكاته، إلا إذا تدخل الأمير برحمتهم، وهو ما كان يحدث أيضًا في القانون الفرنسي القديم[31].

وفي التصور الإسلامي، يرى الأستاذ دراز أن قصر الجزاء العقابي على الإنسان البالغ السوي ليس حديثًا في العالم الإسلامي، بل هو قديم منذ أكثر من 13 قرنًا. فقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم أن الأطفال غير مسؤولين حتى يبلغوا، والمجانين حتى يبرأوا. وبالتالي، لا يُعاقب الأطفال والمجانين، ولا حتى الحيوانات التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله "العجماء جبار"[32]. فهذا إنما أريد به ما جنت العجماء، مما لا صنع فيه للراكب،

---

[29] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص223.

[30] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص225.

[31] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص226.

[32] انظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**، ج2، ص50. كتاب الزكاة، بَابُ فِي الرِّكَازِ الخُمُسُ، رقم الحديث: 1499.

لأنها بهيمية لا تتكلم، وقد ورد في صحيح ابن حبان بابٌ بعنوان: ذِكْرُ الإِخْبَارِ عَنْ نفْيِ لُزُومِ الْحَرَجِ عَنْ مَالِكِ الْعَجْمَاءِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهَا سَائِقٌ، أَوْ قَائِدٌ، أَوْ رَاكِبٌ بِمَا أَتَتْ عَلَيْهِ[33]. وبهذا لا مسؤولية عليها، ولا مسؤولية عن راكبها، كما أن المدرسة الظاهرية تذهب إلى أبعد من ذلك، حيث ترى أنه يجب إعفاء أصحاب الحيوانات والأطفال والمجانين من المسؤولية والعقوبة[34].

ومهما يكن من أمر، فإن المسؤولية العقابية تتشابه مع المسؤولية الأخلاقية في جوانب عديدة لكنها تتميز عنها بسمات جوهرية. ففي المسؤولية الأخلاقية، تركز على النوايا وحركة الضمير، ولا يمكن للعمل البدني أو الإرادي وحده أن يُنشئها دون النية. أما المسؤولية العقابية فتستهدف الواقع الخارجي وتعتمد على التعبير المادي للفعل، حيث لا تكفي النوايا وحدها – سواء كانت خيّرة أو سيئة – لفرض حكم قانوني دون وجود فعل مادي ملموس[35].

فالعقوبة على الخطأ غير المقصود تُوسّع الفجوة بين المسؤولية الاجتماعية والمبدأ الأخلاقي، مما يضع الفرد في موقف تعيس لا يستحقه؛ ولأن المجتمع مسؤول عن رفاهية أفراده، فإن الإسلام يدعو إلى التضامن من خلال تخصيص موارد لمساعدة الأفراد في مواجهة البؤس غير المتوقع، مثل سداد ديون المدينين من مصارف الزكاة ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ [التوبة: 60]. هذا التعاون يُبنى على الإنصاف، حيث تُوزع التكاليف وفق إمكانيات كل فرد، وليس بالتساوي العددي، لضمان عدم إرهاق أحد[36].

مناقشة الأفكار السابقة حول المسؤولية في الإطار الاجتماعي:

يمكننا تحليل المسؤولية من خلال تأثيرها على الفرد وارتباطها بالوعي الذاتي والضمير، فمفهوم المسؤولية الفردية يعزز الوعي الذاتي لدى الشخص، حيث يشعر أنه جزء من شبكة اجتماعية أكبر، وبالتالي فإن أفعاله تؤثر على الآخرين. وقد أشار ابن حزم إلى أهمية الأعمال الاجتماعية الكبرى مثل تعليم الدين، الحكم العادل، والجهاد،

---

[33] أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي، **صحيح ابن حبان**، تحقيق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 2012)، ج4، ص407.

[34] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص227-228.

[35] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص229.

[36] انظر: محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص240.

وهذه الأعمال تحفز الفرد نحو القيام بدوره المجتمعي وهو أمر يدعمه الضمير البشري باعتباره مكونًا فطريًا نحو تحسين المجتمعات.

علاوة على ذلك، يشير دراز إلى أن المسؤولية في الإسلام تختلف من فرد لآخر بناءً على عمره أو حالته العقلية (كالطفل أو المجنون). وهذا يرتبط بالجانب النفسي حيث لا يُحمّل الفرد مسؤوليات قد تتجاوز قدراته العقلية أو الفطرية. لذا، يتناول النص موضوع المسؤولية بذكاء، موازنًا بين الحالات النفسية المختلفة التي قد تؤثر على قدرة الأفراد على تحمل المسؤوليات.

علميًا، يمكن دراسة المسؤولية ضمن مجال علم النفس الاجتماعي وعلم السلوك. فالمسؤولية تتطلب من الأفراد أن يكونوا مدركين للأفعال التي يتخذونها، وهو ما يرتبط بعمليات اتخاذ القرار. في الإسلام، المسؤولية مرتبطة بالنية والوعي، وهي محورية في فهم أخلاقيات السلوك داخل المجتمعات. وعندما يحدد النص أن المسؤولية العقابية تختلف عن المسؤولية الأخلاقية، نرى أن المسؤولية العقابية تتعلق بالفعل المادي، بينما المسؤولية الأخلاقية تعتمد على النوايا الداخلية.

الحديث عن الأطفال والمجانين في النص يثير قضية كيفية فهم البشر للقدرة على تحمل المسؤولية بناءً على القدرة العقلية. وهذا يرتبط بمفاهيم علمية مثل "النضج الإدراكي" و"الوعي الأخلاقي"، وهي عوامل رئيسية في تقييم الأفراد اجتماعيًا وعقابيًا.

من الناحية التربوية، يحمل الحديث عن المسؤولية الاجتماعية في الإسلام عدة رسائل مهمة. بدايةً من تعليم الأطفال أن أعمالهم تؤثر على المجتمع، وهو ما يتطلب تعليمًا مبكرًا للضمير الاجتماعي وأخلاقيات التعامل مع الآخرين. فهذه المسؤولية الاجتماعية لا تتوقف عند حدود التعليم بل تمتد إلى دور الأفراد في المجتمع الأكبر مثل القادة، والمربين، والعلماء.

إضافةً إلى ذلك، إن الدعوة إلى التضامن الاجتماعي والمساعدة في حالات الضيق (كما في الزكاة) تعكس المبادئ التربوية التي تهدف إلى خلق بيئة عادلة ومتعاونة، حيث يساعد الأفراد بعضهم البعض في ظل مسؤولياتهم

الاجتماعية. على هذا النحو، يمكن تربية الأفراد على مفهوم أن المجتمع كله مسئول عن رفاهية أفراده، وأن التعاون بين الأفراد هو أساس الاستقرار الاجتماعي.

نتائج البحث:

استخلص الباحثان بعض النتائج مع التركيز على فكر الشيخ محمد عبد الله دراز حول المسؤولية الفردية والجماعية استنادًا إلى القرآن:

1. **المسؤولية الفردية تعتمد على الوعي والإرادة:** أشار الشيخ دراز إلى أن المسؤولية الفردية تستند إلى عنصرين أساسيين: الوعي والإرادة؛ إذ لا بد أن يكون العمل مدفوعًا بنية وفهم كاملين للأبعاد الأخلاقية والاجتماعية، كما أن الشخص لا يمكن تحميله المسؤولية إلا إذا كان قادرًا على فهم وواعية لتأثير أفعاله.
2. **الفرق بين المسؤولية الإصلاحية والجزائية:** يرى دراز أن المسؤولية الإصلاحية (المجتمعية) مرنة، فهي تتعلق بالإصلاح والتوجيه والتفاعل بين الأفراد في المجتمع. أما المسؤولية الجزائية، فترتبط بالعقاب، وتخضع لمعايير محددة مثل العقل والبلوغ.
3. **العدالة الاجتماعية وفقًا للقرآن:** تكمن العدالة في ضمان أن يحصل كل فرد على حقه العادل، حيث يعتبر القرآن أن العدالة المطلقة تضمن أن كل فرد يتمتع بحقوقه، ولا يظلمه أحد. هذا يظهر بوضوح في التأكيد القرآني على أن الشخص سيحاسب فقط على ما يملك من عمل حقيقي.
4. **مسؤولية المجتمع في الإسلام:** في الإسلام، يُعتبر المجتمع مسؤولًا عن رفاهية أفراده؛ هذا يظهر في الدعوة إلى التضامن الاجتماعي والتعاون، حيث يُساهم الجميع في رفاهية الآخرين من خلال الزكاة والمساعدة المتبادلة.
5. **التحليل الفطري لمسؤولية الأفراد:** يعتمد القرآن الحكيم على القدرات الفطرية للأفراد لتحديد ما هو صواب وما هو خطأ، وتُعتبر هذه الفطرة موجهًا للأفراد نحو معرفة واجباتهم، وهو ما يتوازى مع الفهم العقلي والقلبي.

6. **الآثار الاجتماعية لمسؤولية الأفراد:** إن مسؤولية الأفراد لا تنحصر فقط في أفعالهم الشخصية، بل تمتد لتشمل تأثيرات أفعالهم على المجتمع بأسره. فالعالم، والحاكم العادل، والمجاهد، هم أمثلة لأفراد تتحمل مسؤولية اجتماعية كبرى في الإسلام.

7. **المسؤولية تجاه الأطفال والمجانين:** إن الشيخ دراز يرى أن الأطفال والمجانين لا يُحمّلون مسؤولية عقابية، وهو ما يتماشى مع تعاليم القرآن العظيم الذي يخفف المسؤولية عن هؤلاء، كونهم غير قادرين على فهم أفعالهم.

8. **التعاون المجتمعي كمبدأ أساسي:** يبرز في فكر الشيخ دراز أن المسؤولية الاجتماعية تتطلب تعاونًا متبادلًا بين أفراد المجتمع؛ ذلك أن المجتمع يُعتبر وحدة متكاملة تعمل معًا للحفاظ على رفاهية أفراده.

9. **العدالة في توزيع العقوبات:** إن العقوبات لا تفرض إلا على الأفراد الذين يمتلكون النية والقدرة على الفهم؛ وبالتالي، لا يُعاقب من لم يصل إلى سن البلوغ أو من فقد عقله؛ هذا يعكس العدالة في تفسير المسؤولية العقابية في الإسلام.

10. **المسؤولية الأخلاقية والعقابية:** إن المسؤولية الأخلاقية تتعلق بالنوايا والضمير الداخلي، بينما المسؤولية العقابية تتعلق بالفعل المادي والواقعي؛ وهذا التمييز يعكس التوازن بين التأثير الداخلي والواقعي في تحديد مسؤولية الأفراد داخل المجتمع.

كل هذه النقاط تبرز فكر الشيخ محمد عبد الله دراز في تفسير المسؤولية من خلال القرآن، وهي تُظهر التوازن بين المسؤولية الفردية والجماعية، وكذلك مرونة القيم الإسلامية في تفسير الأخلاقيات، والعقوبات، والحقوق الاجتماعية.

قائمة المصادر والمراجع

ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي (المتوفى: 327هـ) . **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، (المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط3، 1419هـ).

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ) .**الإيمان**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (عمان: المكتب الإسلامي، ط5، 1416هـ/1996م).

ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي .**صحيح ابن حبان**، تحقيق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 2012).

أبو عبيد، القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي .**الطهور**، حققه وخرج أحاديثه: مشهور حسن محمود سلمان، (جدة: مكتبة الصحابة، ط1، 1994م).

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي .**الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ρ وسننه وأيامه**، ج2. كتاب الزكاة، بَابُ فِي الرِّكَازِ الخُمُسُ، رقم الحديث: 1499.

دراز، محمد بن عبد الله .**دستور الأخلاق في القرآن**،)بيروت: مؤسسة الرسالة، ط10، 1998م.(

دراز، محمد بن عبد الله .**مختصر دستور الأخلاق في القرآن**.

دراز، محمد بن عبد الله .**مدخل إلى القرآن الكريم**، تحقيق: محمد عبد العظيم، (القاهرة: دار القلم، ط5، 1424هـ/2003م).

الكتاب المقدس (العهد الجديد)، الاصحاح التاسع عشر، الإنجيل متى، أية 21، https://st-takla.org/pub_newtest/Arabic-New-Testament-Books/03-Luke/Enjil-Loka_Chapter-18.html آخر التعديل لهذه الصفحة 8 نوفمبير 2020م.

الكتاب المقدس (العهد القديم)، الاصحاح الثالث، سفر التكوين، أية 3، https://st-takla.org/pub_oldtest/Arabic-Old-Testament-Books/01-Genesis/Sefr-Al-Takween_Chapter-03.html آخر التعديل لهذه الصفحة 8 نوفمبير 2020م.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (المتوفى: 450هـ) .**تفسير الماوردي = النكت والعيون**، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).

منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة .**مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة**، ج8.